كتابك

٢٠

أنور أحمد

العدالة الاجتماعية في الإسلام



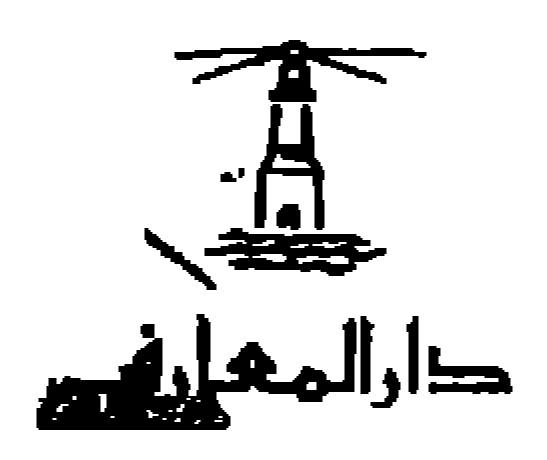
دار المعارف

كتابك (٢٠)

رئيس التحرير : أنيس منصور

أنور أحمد

العدالة الاجتماعية في الإسلام



الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ »

(صدق الله العظيم)

العدالة الاجتماعية

قبل أن نتحدث عن العدالة الاجتماعية فى الإسلام يجدر بنا أولاً أن نحدد معنى « العدالة الاجتماعية » ، ما هى ؟ وما مقوماتها ؟ وكيف تتحقق ؟

والواقع أنه ليس من السهل تعريف العدالة الاجتماعية فى جملة أو عبارة واحدة تدل عليها وتحيط بها وتوضح مدلولها :

عرّفها علماء الاجتماع فقالوا : إن العدالة الاجتماعية تتمثل فى « طائفة من المبادئ والنظم التى يثبت بالتجربة أن المنفعة الاجتماعية تبلغ بها حدها الأقصى . . » .

وهذا التعريف يتحدث عن وسائل تحقيق العدالة الاجتماعية ، فيذكر أنها المبادئ والنظم التى تحقق الحد الأقصى للمنفعة الاجتماعية ، ثم لا يحدد هذه المبادئ والنظم ، ولا يبين كيف يتحقق النفع الاجتماعى ؟

وقال غيرهم : إن العدالة الاجتماعية تتحقق برفع الظلم الاجتماعى فى شتى صوره والقضاء على أسبابه .

وحاول الميثاق الوطنى الذى صدر فى عام ١٩٦٢ تحديد معالم العدالة الاجتماعية : فذكر أنها لا تتحقق إلا بتوفير الحرية السياسية والحرية

الاجتماعية للمواطن ؛ إذ بدونهما أو بدون أى منهما لا تستطيع الحرية أن تحلق إلى آفاق العدل المرتقب .

ثم يمضى الميثاق فيؤكد أن الحرية الاجتماعية لا تتحقق للمواطن إلا إذا تحققت له الضمانات الثلاثة الآتية :

١ – أن يتحرر من الاستغلال فى جميع صوره .

٢ – أن تكون له الفرصة المتكافئة فى نصيب عادل من الثروة الوطنية .

٣ – أن يتخلص من كل قلق يُبدِّد أمن المستقبل فى حياته .

ويطول بنا الحديث لو مضينا نستعرض ما قيل حول تحديد معنى العدالة الاجتماعية ، ولكننا نستطيع أن نقول : إن المجتمع الذى تسود فيه العدالة الاجتماعية هو المجتمع الذى تتحقق فيه العناصر الآتية :

أولاً : الحرية السياسية عن طريق الديمقراطية .

ثانياً : الحرية للإنسان الفرد .

ثالثاً : المساواة .

رابعاً : تكافؤ الفرص .

خامساً : التكافل الاجتماعى بما يحققه من خدمات الرعاية الاجتماعية .

ولقد كان هذا المجتمع المثالى حلم الإنسانية منذ أقدم العصور ، من عهد الإغريق القدماء عندما كتب أفلاطون كتابه عن الجمهورية التى

تخيلها صورة الدولة المثلى والمجتمع النموذجى الذى يتحقق فيه العدل الاجتماعى .

ومنذ عهد « جمهورية أفلاطون » ظلت الإنسانية تكافح لتحقيق هذا الأمل الجميل ، فقامت الثورات على مرّ العصور يذكى نارها المفكرون والأحرار ، وكل ثورة ترفع شعار العدالة الاجتماعية ؛ لتضمن تأييد الجماهير التى تئن تحت وطأة الظلم الاجتماعى .

فما موقف الإسلام من هذه العدالة الاجتماعية التى حددنا سماتها ومعالمها فى العناصر الخمسة السابقة ؟

هذا هو موضوع حديثنا فى هذا الكتاب :

الديمقراطية فى الإسلام

قلنا : إن الحرية السياسية سبيلها الديمقراطية كما نفهمها فى العصر الحديث ، وهى حكم الشعب بالشعب وللشعب ، فكيف كان تصور الإسلام لنظام الحكم ؟

لقد جعل الإسلام الأمر شورى بين المسلمين ، يختارون من يرون أنه أحق بالخلافة ، فتتم له البيعة بالاقتناع الحر .

وإذا كان النبى ﷺ قد أشار بأن يصلى أبو بكر بالناس عندما مرض مرض الموت ، وإذا كان أبو بكر رضى الله عنه قد أشار باستخلاف عمر ابن الخطاب ، وإذا كان « عمر » قد حدد ستة يختار المسلمون أحدهم من بعده – فإن ذلك كله لم يكن ملزماً للمسلمين ، ولم يكن تعييناً نهائيًّا للخليفة ، وإنما كان فى حقيقته نوعاً من الترشيح لأبى بكر وعمر والستة الآخرين ، على أن تكون الكلمة الأخيرة للمسلمين ، فلم يصبح أحد منهم خليفة إلا بعد أن رضى به المسلمون وبايعوه بالخلافة عن اقتناع وطيب خاطر .

فإذا تمت البيعة الحرة للحاكم كان عليه أن يعدل بين المحكومين ، وكان عليه أن يجعل الشورى أساساً لحكمه ، والعدل المطلق دستوراً لكل تصرفاته .

هذا أبو بكر يخطب الناس بعد أن بويع بالخلافة فيقول :

– أيها الناس ، إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم !

وهذا عمر بن الخطاب يخطب الناس بعد مبايعته فيقول لهم : « إن رأيتم فىّ اعوجاجاً فقومونى » فيقول له أحد الناس :

– والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا ؛ فلا يغضب الخليفة ولكنه يقول للرجل :

– الحمد لله الذى جعل فى رعية عمر من يقومه بحد السيف !

والشورى مظهر أساس للحكم فى الإسلام .

قال تعالى : « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ . . » الشورى من آية (٣٨) .

والله سبحانه وتعالى يوصى النبى ﷺ صاحب الرسالة بذلك فى قوله : « وَشَاوِرْهُمْ فى الأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ . . » آل عمران (١٥٩) .

ولهذا كان الرسول يشاور أصحابه فى أمور دنياهم ، ويقول لهم « أنتم أعلم بشئون دنياكم » ، ويستفيد من آرائهم فى الوصول إلى القرار الأفضل ، إلا ما نزل به الوحى ، أو تعلق برسالته كنبى من شئون العقيدة أو الدين :

فى موقعة بدر ، عندما أجمع المسلمون على أن يثبتوا للعدو إذا

حاربهم بادروا إلى ماء بدر ، فلما وصلوا إلى أدنى ماء منها نزل به الرسول . وكان معه الحباب بن المنذر ، وكان عليماً بالمكان ، فقال للنبي :

– يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ؟ أمنزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال النبى :

– بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال الحباب :

– يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم ، ثم نُعوِّر ما وراءه من القُلُب ، أى نردم ما وراءه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا !

وتبين النبى صواب رأى صاحبه ، فوافقه عليه ، وقام مع أصحابه ينفذون ما أشار به الحباب معلناً إلى قومه أنه بشر مثلهم ، وأن الرأى شورى بينهم ؛ فهو لا يقطع برأى دونهم ؛ لأنه فى حاجة إلى حسن مشورة صاحب المشورة الحسنة منهم .

ولما ابتدأ بناء الحوض أشار سعد بن معاذ قائلاً :

– يا بنى الله ، نبنى لك عريشاً تكون فيه ، ونُعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من

قومنا ؛ فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ، ما نحن بأشد لك حبًّا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

ووافق النبى على رأى سعد بن معاذ ، وأثنى عليه ، ودعا له بخير ، وبَنى العريش للنبى حتى إذا لم يكن النصر فى جانبه وجانب أصحابه لم يقع فى يد أعدائه ، واستطاع اللحاق بأصحابه فى المدينة .

بل إن النبى كان يستشير أصحابه فى أخص شئونه الأسرية : ففى قصة حديث الإفك ، دعا إليه أسامة بن زيد وعلى بن أبى طالب واستشارهما : ماذا يصنع ؟ إلى آخر ما جاء فى كتب السيرة فى هذا الموضوع .

والعدل المطلق مسئولية الحاكم الأولى فى الإسلام . وللرعية أن تراقبه ، وتنقده ، وتحاسبه .

ولست فى حاجة إلى كثير من الشواهد والأمثلة ، وحسبى أن أشير إلى ما حدث مع النبى نفسه ، وهو رسول الله وصاحب رسالته وشريعته :

تقدم إليه يوماً أعرابى وسأله مزيداً من العطاء وقال له فى غلظة ووقاحة :

— اعدل يا محمد . . !

فلم يغضب النبى ، ولكنه ابتسم وقال له :

— ويحك . ! فمن يعدل إن لم أعدل ؟

وفى مرة أخرى قال له أعرابى فى بداوة جافة :

– يا محمد ، هل هذا المال مال الله أو مال أبيك ؟

فوثب إليه عمر بن الخطاب يريد أن يضربه بسيفه ، فمنعه النبى قائلاً :

- دعه يا عمر ! . إن لصاحب الحق مقالاً .

وفى العدل يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ » النحل / ٩٠ .

ويقول :

« وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ . . » النساء / ٥٨ .

ويقول :

« وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » الأنعام / ١٥٢ .

ويقول :

« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » المائدة / ٨ .

إنه العدل المطلق الذى لا يتأثر بالحب والبغض ، ولا بالقرابة بين الأفراد – يتمتع الناس به جميعاً على السواء ، لا يفرق بينهم حسب ولا نسب ، ولا مال ولا جاه !

ويقول النبى ﷺ :

– اتقوا الظلم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة !

ويقول :

— دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب فى حديث قدسى : « وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » .

وصعد عليه السلام المنبر يوماً وخطب فقال للناس :

— من كنت أخذتَ منه مالاً فهذا مالى فليأخذ منه ، ومن كنت جلدتَ له ظهراً فهذا ظهرى فليقتد منه !

إن النبى العظيم كان يعلم أنه لم يأخذ مال أحد ، ولم يجلد ظهر أحد ، ولكنه أراد أن يضرب المثل فى التحرى المطلق للعدل ، والتحرز البالغ من الظلم !

وهذه هى ركائز نظام الحكم الإسلامى التى تحقق الحرية السياسية لأفراد المجتمع : أى التى تحقق الديمقراطية فى أرفع صورها ورحم الله شوقياً أمير الشعراء إذ قال :

فرسمت بعدك للعباد حكومة لا سوقةٌ فيها ولا أمراءُ
الله فوق الخلق فيها وحدَه والناسُ تحت لِوائها أكْفاءُ
والدِين يسرٌ ، والخلافة بَيْعةٌ والأمْر شورى والحقوقُ قَضاء

الحرية للإنسان الفرد

لن يشعر الإنسان بالعدل فى المجتمع إلا إذا أحس أنه إنسان حر فى مجتمع حر ، ولن يحس بهذه الحرية إلا إذا تحرر من الخوف على حياته وأمنه ورزقه ومستقبله .

ولقد حرص الإسلام على أن ينبع الإحساس بهذا التحرر من نفس المسلم أولاً قبل أن يهيئ الوسائل التشريعية لكفالته ؛ ولهذا كان الهدف الأول للإسلام هو أن يحرر الوجدان البشرى تحريراً كاملاً ؛ ليكون الإنسان مُستحقًّا لما يناله من أسباب العدل الاجتماعى ، قادراً على التمسك بها والحفاظ عليها .

ولهذا بدأ الإسلام بتحرير الإنسان من عبادة أحد غير الله ، وتقديس أحد غير الله . يقول سبحانه وتعالى :

« قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » سورة الإخلاص .

ويقول :

« قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ » آل عمران / ٦٤ .

هو الله الواحد الأحد ، لا يُعبد إلاّ هو ، ولا تعنو الجباه لسواه ، الكل خلقه وعبيده . ومحمد عبده ورسوله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا من دون الله :

« قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً . قُلْ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَداً . قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً » الجن — ٢٠ — ٢٢ .

وهكذا إذا تحرر الوجدان الإنسانى من شعور العبادة والقداسة لأحد من عباد الله ، وانتفت الوساطة بين الله وعباده جميعاً شعر الإنسان بأنه قريب إلى الله ، واستشعرت نفسه العزة والقوة ، وتحررت من الخوف ، فلا يقبل العبودية لغير الله سبحانه وتعالى .

هذا الشعور بالتحرر هو الذى كان يدفع « أبا حازم » أن يدخل على معاوية بن أبى سفيان فلا يقول له : « السلام عليكم يا أمير المؤمنين » وإنما يقول له « السلام عليك أيها الأجير . . ! » فإذا نهرته الحاشية وطلبت إليه أن يقول « السلام عليك أيها الأمير » أبى عليهم ذلك ، ثم التفت إلى معاوية وقال له :

— إنما أنت أجير هذه الأمة . . . استأجرك ربك لرعايتها !

ويذكرنا هذا بقول أبى العلاء المعرى فى لزومياته وهو ينقد الحكام الظالمين :

ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها وَعَدَوْا مصالحها وهم أجراؤها

هذه الحرية التى نصّ عليها ميثاق حقوق الإنسان الذى وضعته الأمم المتحدة فى القرن العشرين عندما قررت وثيقةُ الإنسام أن « الناس يولدون أحراراً متساوين ... إلخ » قررها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً . وكفلهاللإنسان الفرد ، عندما أمنه على حياته وحريته وحرمة مسكنه ، وكفل له حرية العبادة ، وحرية التفكير والتعبير ، وحرره من كل أنواع الخوف :

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .

كلمة قالها عمر بن الخطاب يؤكد فيها هذه الحقيقة التى قررها الإسلام ليقيم عليها قواعد المجتمع .

جاء مصرى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يشكو إليه عمرو بن العاص الذى كان والياً على مصر ، وقال له : إن عمراً أقام سباقاً للخيل ، فأقبلت فرس المصرى فى المقدمة ، فحسبها محمد بن عمرو بن العاص فرسه ، فلما تبين الحقيقة غضب ووثب على المصرى يضربه بالسوط ويقول له :

– خذها وأنا ابن الأكرمين !

وعلم عمرو بما حدث ، فخشى أن يشكوه المصرى إلى الخليفة فحبسه زمناً ، ولكن المصرى أفلت وذهب إلى عمر بن الخطاب شاكياً ، فاستدعى الخليفة عمرو بن العاص وابنه محمداً من مصر ، فلما حضرا استدعى المصرى وناوله الدرة وقال له :

– دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين !

فضرب المصرى ابن عمرو بن العاص حتى أثخنه ، ثم قال له عمر .

– أجلْها على صلعة عمرو ! فوالله ما ضربك ابنه إلا بسلطانه

فقال المصرى :

– يا أمير المؤمنين ، قد ضربت من ضربنى !

قال عمر :

– أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه .

ثم التفت إلى عمرو بن العاص وقال له قولته الخالدة :

– أى عمرو ، متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

هذه الحرية ، وهذا التحرر ، هو أحد الأسس الرئيسة التى يقوم عليها صرح العدالة الاجتماعية فى الإسلام ، بل هو الركن الأول الذى تقوم عليه جميع الأركان ، ومنها المساواة .

المساواة فى الإسلام

فى مجال المساواة جاء الإسلام بالعجب العجاب :

منذ أربعة عشر قرناً فى الوقت الذى كان يدعى فيه بعض من قياصرة الرومان أنهم من نسل الآلهة ، ويدعى بعض آخر أن ما يجرى فى

عروقهم ليس من نوع دماء عامة الناس ، ولكنه الدم الأزرق الملكى النبيل ، وفى الوقت الذى كان يستعلى فيه الناس فى جزيرة العرب نفسها بأنسابهم وأحسابهم – جاء الإسلام يقرر المساواة الكاملة بين الناس جميعاً ، لا امتياز لأحد على أحد ، ولا لشعب على شعب بسبب الجنس أو اللون ! قال تعالى :

« يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » الحجرات / ١٣ .

وقال تعالى :

« يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً » النساء / ١ .

الناس كلهم إذن من أصل واحد ، ومن نفس واحدة ، ولا فضل لأحد على الآخر بسبب عنصره ، وإذا كان سبحانه وتعالى قد جعل الناس شعوباً وقبائل فليس ذلك لتفضيل شعب على شعب أو قبيلة على قبيلة ، وإنما قسّمهم هذا التقسيم ليكون ذلك وسيلة للتعارف والتمييز بينهم .

وهذا رسول الله يقول فى خطبة الوداع :

أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر – فضلٌ إلا بالتقوى .

ألا هل بلغتُ ؟ اللهم فاشهد . . . ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

ويقول صلى الله عليه وسلم :

– الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .

مساواة كاملة مطلقة يقررها الإسلام ، فلا امتياز لإنسان على إنسان بسبب لونه .

سمع النبى مرة أبا ذر الغفارى يحتد على بلال بن رباح ، وكان عبداً حبشيًّا ، ويقول له : « يا بن السوداء ! » فغضب عليه السلام وانتهر أبا ذر وقال له :

– إنك امرؤ فيك جاهلية ! ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو عمل صالح .

فوضع أبو ذر خده على الأرض وأقسم على « بلال » أن يطأه بحذائه حتى يغفر الله له زلته !

ولا امتياز لإنسان على إنسان بسبب الغنى والثروة أو الجاه والمركز والحسب .

يقول النبى عليه الصلاة والسلام : « لا تفلح أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى .

وقال أبو بكر فى أول خطبة له بعد مبايعته بالخلافة :

– ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم

عندى القوى حتى آخذ الحق منه !

ولقد عاتب الله تعالى نبيه عتاباً شديداً فى قصته مع الرجل الفقير الأعمى « ابن أم مكتوم » الذى جاء إلى النبى يطلب شيئاً من العلم والقرآن . وكان عند النبى « الوليد بن المغيرة » سيد قومه ، وكان النبى يطمع فى إسلامه ، فتضايق من إلحاح ابن أم مكتوم وعبس فى وجهه ، فنزلت الآيات الكريمة :

« عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى » . عبس / ١ — ١٠ .

يا لروعة هذا الدرس الإلهى فى المساواة المطلقة التى يفرضها الإسلام بين الناس !

وهذه المساواة تشمل الحقوق والواجبات جميعاً ، ومن أخصها المساواة فى المسئولية والجزاء ، وأمام القضاء . ولنستمع إلى قصة جبلة بن الأيهم الغسانى ، وكان من ملوك آل جفنة ، وعمر بن الخطاب .

عندما أسلم جبلة بن الأيهم — كتب إلى عمر رضى الله عنه يستأذنه فى القدوم عليه ، وخرج إلى المدينة فى خمسمائة من أهل بيته ، فدخلوا على الخيول المطهمة وقد ألبسوها قلائد الذهب والفضة ، فلما انتهى إلى « عمر » رحب به وأدنى مجلسه ، ثم خرج جبلة بن الأيهم يحج مع عمر ،

فبينما كان يطوف بالبيت داس على إزاره رجل من بنى فزارة ، فانحل الإزار ، فلطمه « جبلة » بيده ، فهشم أنفه ، فشكاه الفزارى إلى عمر الذى استدعاه وسأله ، فقال جبلة :

— نعم يا أمير المؤمنين ، إنه تعمد حل إزارى ، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف !

فقال له عمر :

— لقد أقررت : فإما أن ترضى الرجل ، وإما أن أقيده منك : أى أقتص له منك .

قال جبلة :

— وماذا تصنع بى ؟

فأجابه عمر :

— آمر بهشم أنفك كما فعلت .

فقال جبلة :

— وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ؟

فقال عمر :

— إن الإسلام جمعك وإياه ؛ فلست تفضله بشىء إلا بالتقى والعافية .

قال جبلة :

— إذن أتنصر !

— إن فعلت ضربت عنقك ؛ لأنك قد أسلمت ، فإن ارتددت قتلتك .

فطلب إلى عمر أن يُنظره حتى الصباح ليفكر فى الأمر ففعل ، وانتهز « جبلة » الفرصة وهرب ليلاً إلى الشام ، ثم لجأ مع قومه إلى القسطنطينية حيث تنصروا وأقاموا فى ضيافة هرقل ملك الروم .

ولم يخسر الإسلام أن صبأ « جبلة » ومن معه ، ولكنه كسب ثقة المسلمين فى المساواة التى لا تفرق فى الحق بين صغير وكبير .

بل إن جبلة نفسه قد ندم على ما فرط منه . ويروى أنه كان يبكى وهو ينشد شعره الذى يقول فيه :

تنصرت الأشراف من عار لطمةٍ ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنّفنى فيها لجاجٌ ونخوةٌ ... وبعتُ بها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمى لم تلدنى وليتنى ... رجعتُ إلى القول الذى قال لى عمر

ويقول عمر بن الخطاب فى رسالته الشهيرة لأبى موسى الأشعرى عندما ولاّه القضاء :

— « آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك (أى سوّ بينهم فى ذلك كله) حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييئس ضعيف من عدلك » .

وحدث فى عهد النبى ﷺ أن فاطمة المخزومية سرقت ووجب عليها الحد ، وكانت تنتمى إلى بطن من أشرف بطون قريش ، فتشفع لها

بعض عند النبى . فغضب وقام فخطب الناس قائلاً :

– إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها !

هذه المساواة الكاملة المطلقة فى المسئولية والجزاء وفى مجلس القضاء التى أرسى الإسلام قواعدها – قد استقرت فى نفوس المسلمين ووجدانهم . حتى لقد حدث أن يهوديًا شكا الإمام على بن أبى طالب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فلما مثلا بين يديه خاطب « عمر » اليهودى باسمه ، على حين خاطب عليًا بكنيته فقال له : « يا أبا الحسن » كما تعود أن يدعوه . والخطاب بالكنية كان أسلوباً فى التحبب والتعظيم ، فظهر الغضب على وجه « على » ، فقال له عمر :

– هل كرهت أن يكون خصمك يهوديًا وأن تمثل معه أمام القضاء ؟

فقال على بن أبى طالب :

– لا ، ولكننى غضبت ؛ لأنك لم تسو بينى وبينه ، فخاطبته باسمه وخاطبتنى بكنيتى !

يا للإمام العظيم ! كيف يبلغ إيمانه بالمساواة فيتمثلها فى أدق صورها ؟

ويروى أن الخليفة المأمون جلس يوماً للمظالم . فتقدمت إليه امرأة

عليها ثياب رثة ، وأفضت إليه بأن لها شكوى من خصم ظلمها . فسألها :

– أين الخصم ؟

فقالت :

– الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين !

وأشارت إلى ابنه العباس ، فأمر المأمون حاجبه أن يأخذ بيد ولده ويجلسه مع المرأة الشاكية ففعل . وأخذ كلام المرأة يعلو وصوتها يرتفع على صوت العباس . فقال لها الحاجب :

– يا أمَةَ الله ، إنك بين يدى أمير المؤمنين ، وأنت تكلمين الأمير .

فقال له المأمون :

– دعها ، فإن الحق أنطقها وأخرسه !

ثم قضى لها برد مظلمتها وإحسان معاملتها ، وأمر لها بنفقة .

هذه المساواة التى كان يلتزمها الخلفاء الراشدون فى أنفسهم ، فلا يميز أحدهم نفسه عن سائر المسلمين بشىء – هى التى جرأت رجلاً على أن يقاطع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو على المنبر على النحو التالى :

كان المسلمون قد غنموا أبراداً يمانية فقسمها « عمر » بالتساوى بين الناس ، فخصه برد ، كما خص ابنه عبد الله برد ، كسائر المسلمين .

وكان « عمر » فى حاجة إلى ثوب بعد أن بلى ثوبه ، ولما كان البُرد الذى خصه قصيراً وهو رجل طوال فقد تبرع له ولده عبد الله ببرده ،

فصنع منهما ثوباً ، ووقف يخطب الناس وعليه هذا الثوب ، فقال :

– أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا . . .

فوقف رجل وقال له :

– لا سمع لك علينا ولا طاعة !

فسأله :

– ولم ؟

قال الرجل :

– من أين لك هذا الثوب وقد نالك برد واحد وأنت رجل طوال ؟

فلم يغضب « عمر » وإنما قال للرجل :

– لا تتعجل .

ثم نادى :

– يا عبد الله ، يا عبد الله بن عمر .

– لبيك يا أمير المؤمنين .

– نشدتك الله ، البرد الذى ائتزرت به ، أهو بردك ؟

– اللهم نعم .

فقال الرجل المعترض :

– الآن : مر نسمع ونطع .

ولو مضيت أعد صور المساواة فى الإسلام ، وأضرب الأمثلة والشواهد فلن ينتهى بنا الحديث . وحسبى أن أقرر أن الإسلام تتبع كل

ناحية من حياة الناس ، فأكد فيها معنى المساواة ، وجعلها من العقائد الأساس التى يجب أن يدين بها كل مسلم .

ولكن أى مساواة ؟

إنها المساواة التى تنبع من الإيمان بأن الناس جميعاً متساوون فى طبيعتهم البشرية ، فلا يفضل أحد غيره بسبب عنصره أو لونه أو جنسه أو نسبه أو جاهه أو مركزه . ولكن التفاوت يقوم بين الناس لأسباب لا علاقة لها بذلك كله .

أجل . . يتفاوت الناس بسبب اختلافهم فى المواهب والكفاية والعلم والخلق والأعمال .

إنهم يولدون جميعاً متساوين ، ثم يتقدم ويمتاز منهم من تؤهله مواهبه وأعماله للتقدم والامتياز . الجميع لهم الفرصة المتكافئة على قدم المساواة ، ثم ليس للإنسان بعد ذلك إلا ما سعى .

وهنا نصل إلى العنصر الرابع من عناصر العدالة الاجتماعية وهو تكافؤ الفرص للجميع .

تكافؤ الفرص

قرر الإسلام مبدأ المساواة ، ثم ترك الباب مفتوحاً للتفاضل بالجهد والعلم والعمل ، وحثهم على ذلك .

فهو يحثهم على الإقبال على العلم .

قال تعالى :

– « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ » الزمر – ٩

وقال جل شأنه :

– « يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » المجادلة / ١١ .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

– طلب العلم فريضة على كل مسلم .

وأنه قال :

– اطلب العلم من المهد إلى اللحد .

وقال :

– من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع .

والواقع أن الإسلام لا يهيئ الفرصة المتكافئة في طلب العلم

فحسب ، بل إنه كما رأينا يجعله فرضاً على كل مسلم ، ويعلى من شأن صاحبه ، ويحوط طالب العلم بكل ضمان وحماية ، وهو يحث على الرحلة فى طلب العلم . وقد روى عن النبى أنه قال « اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

ويحدثنا التاريخ الإسلامى عن طلاب العلم الذين تركوا أوطانهم ورحلوا فى طلب العلم مستجيبين فى ذلك لتعاليم الإسلام .

وكذلك أعطى الإسلام كل فرد الحق فى أن يزاول العمل المشروع الذى يؤهله له قدراته واستعداده ، وحث المسلمين على العمل لكسب رزقهم ، وجعله فى مقام العبادة والجهاد فى سبيل الله .

يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

— ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده .

ويقول :

— لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه .

ويقول :

— من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له .

ويقول :

— إن الله يحب العبد المحترف .

ورأى رجلاً يعكف على العبادة والصلاة فى المسجد ليل نهار ، فسأل

« من يعوله ؟ » فقيل له : « أخوه » فقال عليه السلام : « أخوه أعبد منه ! » .

ورأى عليه الصلاة والسلام رجلاً من الأنصار قد ورمت يداه فسأله عن السبب فقال : إن ذلك من أثر المسحاة التى يعمل بها فى فلاحة الأرض ليكسب رزقه ورزق عياله ، فقال النبى :

– هذه يد لا تمسها النار ، هذه يد يحبها الله ورسوله .

وشاهد الصحابة يوماً شابًّا قويًّا يسرع إلى عمله فقالوا : « لوكان شبابه وجلده فى سبيل الله . . ! » وسمعهم النبى فأنكر عليهم قولهم ، وأراد أن يوضح لهم سبيل الله فقال عليه السلام :

– لا تقولوا هذا ، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفّها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله . وإن كان يسعى تفاخراً وتكاثراً فهو فى سبيل الشيطان .

هكذا يقدس الإسلام العمل الشريف . وكان الصحابة يشتغلون بأيديهم فى شئون التجارة والزراعة والحرف ، بل إن أبا بكر الصديق عندما بويع بالخلافة خرج فى الصباح إلى السوق ومعه أثواب يتجر بها ، فقابله عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فقالا له :

– كيف تصنع هذا وقد وليت أمور المسلمين ؟

فقال الخليفة الأول :

– فمن أين أطعم عيالى ؟

فأشار عليه عمر بأن يفرض له من بيت المال ما يسد حاجته وحاجة من يعولهم حتى يتفرغ لشئون الخلافة .

ثم إن الإسلام يحفظ حقوق العامل الأجير ، ويتشدد فى ذلك إلى أبعد حد ، وينذر من يجور عليه من أصحاب العمل بحرب من الله وخصومة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث قدسى :

– إن الله عز وجل يقول : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره .

والإسلام يدعو إلى التعجيل بأداء أجر العامل . قال النبى :

– أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه .

وكذلك حرم الإسلام أن يقاسم العامل شيئاً من أجره نظير تقديمه للعمل . كأن يكون هناك مقاول أنفار لا يعمل شيئاً ويتقاضى نصيباً من أجر العمل .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

– إياكم والقسامة .

فسئل وما القسامة ؟ قال :

– الرجل يكون على طائفة من الناس ، فيأخذ من حظ هذا وحظ هذا . فهل هناك حرص على حقوق العمال أروع من هذا الحرص ؟

ولا يكتفى الإسلام بهذا ، فهو يؤمن العامل على مستقبله فى حالة العجز والمرض والشيخوخة ، ويحمى أسرته إذا تركها بغير عائل .

وهذا الحديث يجرنا إلى العنصر الخامس من عناصر العدالة الاجتماعية فى الإسلام وهو التكافل الاجتماعى .

التكافل الاجتماعى

لن تكون هناك عدالة اجتماعية فى مجتمع يضيع فيه الفقير المعوز والشيخ العاجز عن الكسب ، والمريض العاجز عن العمل ، واليتيم الذي فقد عائله ، فلا يجد أحدهم ما يكفل له الحاجات الضرورية للعيش .

ولن تكون عدالة اجتماعية فى مجتمع يشيع فيه الغنى الفاحش والفقر المدقع ، وتتكدس الثروات الضخمة فى خزائن بعض الناس ، فى حين لا يجد بعضهم الآخر ما يمسك به رمقه .

ولن تكون عدالة اجتماعية فى مجتمع تسوده الأثرة فلا يعطف غنى على فقير ، ولا صحيح على مريض ، ولا قادر على محتاج .

أما إذا شعر المجتمع بالواجب عليه للفئات المحتاجة والمتخلفة ، فتكفل القادرون من أبنائه بسد عوز هذه الفئات ، وتوفير ما تحتاج إليه من أسباب العيش وألوان الرعاية — فإنه يكون مجتمعاً تسود فيه العدالة الاجتماعية . وهذا هو التكافل الاجتماعي الذي نقصده .

فما موقف الإسلام من هذا كله ؟

لقد فرض الإسلام التكافل الاجتماعى فى كل صوره وأشكاله ليكون أحد الدعائم القوية لبناء المجتمع الإسلامى .

يقول سبحانه وتعالى :

– إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » الحجرات / ١٠ .

ويقول :

– « وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُوم » .

ويقول :

– « وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابنَ السَّبِيلِ » .

ويقول :

– «كَلَّا بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ » .

ويقول :

– « واعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً . وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً . وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الجُنبِ » النساء / ٣٦ .

وفى هذه الآية الكريمة يُقرن سبحانه وتعالى عبادته وعدم الشرك به . بالإحسان إلى الوالدين وذى القربى واليتامى والمساكين والجار القريب والجار البعيد .

ويقول النبي الكريم من أحاديث كثيرة :

– ليسَ منا من بات شبعان وجاره جائع .

وقال ابن عباس :

– لقد سمعت رسول الله يقول : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام :

– « أيما أهل عرَصة أصبح فيهم امرؤ جائعٌ فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » .

ويقول :

– « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث . ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع » .

– « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له . ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » .

– « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

– « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

وجاء رجل إلى النبي يقول « اكسني يا رسول الله » فقال له :

– أما لك جار له فضل ثوبين ؟

قال الرجل :

– بلى ، غير واحد .

فقال النبى :

– فلا يجمع الله بينك وبينه فى الجنة .

ومن أقواله صلى الله عليه وسلم :

– « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين .. وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى » .

وقال عليه السلام :

– « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، وكالذى يقوم الليل ويصوم النهار » .

أليست هذه هى الاشتراكية فى أنبل صورها ؟

لقد صدق « شوقى » عندما قال عن نبى الإسلام :

الإشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئدا وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء

ولكنى لا أريد أن أدخل فى متاهات حول اشتراكية الإسلام ؛ فهذه كلمة مستحدثة كثر حولها الجدل ، وتعددت المذاهب الاقتصادية التى تتخذ من الاشتراكية شعاراً لها . والاشتراكية ليست هدفاً فى ذاتها ، ولكنها وسيلة لتحقيق العدل الاجتماعى . فإذا كان الإسلام لم يعرف كلمة

الاشتراكية فإنه حقق أروع أهدافها بما وضع من مبادئ وقواعد لتحقق العدالة الاجتماعية .

ونعود إلى حديث التكافل الاجتماعى .

* * *

إن الإسلام عندما فرض التكافل الاجتماعى ليحقق العدل فى المجتمع أقامه على ركنين قويين : الضمير الإنسانى من داخل النفس ، والتشريع القانونى فى محيط المجتمع ، وزاوج بين هاتين القوتين لكى يقيم مجتمعاً متوازناً متناسقاً يقوم فيه الضمير البشرى حارساً على تنفيذ التشريع ، بل ساعياً إلى السمو فوق ما يوجبه التشريع والتكليف :

ففى مجال التشريع والتكليف فرض الوسائل اللازمة لتمويل ما يتطلبه التكافل الاجتماعى من نفقات .

وفيما يلى نشير بإيجاز إلى هذه الوسائل .

تمويل التكافل الاجتماعى

الزكاة :

فرض الإسلام الزكاة على كل مسلم ، وجعلها ركناً أساساً من أركان الإسلام ، يدفعها المسلم إلى بيت المال ؛ فهى ليست إحساناً ولا منة .

قال تعالى :

« وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ . . »
البقرة / ٤٣ .

وقال :

– « وأقيموا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ . . » النور – ٥٦ .

وهكذا نرى القرآن يقرن الزكاة بالإيمان بالله وبالصلاة ستا وعشرين مرة فى آيات مختلفة ، لما لها من أهمية بالغة فى تحقيق العدل الاجتماعى .

وعندما ولى أبو بكر أمور المسلمين بعد وفاة النبى أعلن الحرب على القبائل التى امتنعت عن أداء الزكاة ، واعتبر الممتنع عن أدائها فى حكم المرتد عن الإسلام . وقال فى ذلك :

– والله لو منعونى عقال بعير كانوا يعطونه رسول الله لقاتلتهم عليه ولو وحدى ما استمسك السيف بيدى . لقد اكتمل الدين وتم الوحى ، أو ينتقص وأنا حى ؟

وتجب الزكاة فى المحصولات والمواشى وعروض التجارة وإنتاج المصانع وإيراد العقارات والمال المدخر بنسبة تتردد بين اثنين ونصف الواحد فى المائة وخمسة فى المائة على التفصيل الوارد بشأنها فى أقوال الفقهاء .

وحدد القرآن مستحقى الزكاة فقال :

– « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ

قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ» التوبة — ٦٠ .

الخراج والجزية :

لما فتح المسلمون العراق فى عهد عمر بن الخطاب رغب بعض الصحابة في أن توزع أرضها الزراعية على الفاتحين باعتبارها من غنائم الحرب . فأبى عمر أن يستجيب لهذا الرأى . وترك الأرض فى أيدى زارعيها على أن يلتزموا دفع الخراج عنها تدخل حصيلته فى بيت المال للإنفاق على المصالح العامة للمسلمين .

وأما الجزية فتفرض على غير المسلمين فى البلاد المفتوحة ؛ لأنهم غير ملزمين بأداء الزكاة التى هى من أركان الإسلام . فتفرض الجزية على رءوس غير المسلمين لكى يسهموا فى تكاليف الدولة العامة .

الغنائم :

وهى ما يغنمه المسلمون فى الحرب .

قال تعالى :

— «وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ» الأنفال / ٤١ .

أى أن خمس الغنائم يدخل بيت المال لتنفق فى هذه الأغراض .

وكذلك الفيء الذى يغنمه المسلمون بغير أن يشتبكوا فى قتال ، فكله لله ورسوله واليتامى والمساكين .

قال تعالى :

— « مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، كَىْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » الحشر / ٧ .

الركاز :

وهو ما يُعثر عليه فى باطن الأرض من كنوز ومعادن ، فلبيت المال الخمس منه .

الأشياء الضائعة :

وهى التى ليس لها صاحب معروف ، و التركات التى لا وارث لها ، تدخل كلها بيت المال .

هذه الموارد الخمسة تدخل بيت المال وجوبا بحكم التشريع ؛ لكى يُنفق منها على الأغراض العامة ، وفى مقدمتها خدمات الرعاية الاجتماعية للمحتاجين .

* * *

وإلى جانب ذلك قرر الإسلام طائفة من الأحكام التى تؤدى إلى

مزيد من التكافل الاجتماعى :

من ذلك أن الإسلام أوجب على القادرين فى مواسم تتكرر كل عام أن يخرجوا من أموالهم صدقات للفقراء والمساكين .

من ذلك صدقة عيد الفطر التى تسمى زكاة الفطر التى يجب أن يخرجها رب الأسرة عن نفسه وأفراد أسرته وخدمه ، وتقدر بصاع من التمر أو الشعير أو قيمة ذلك نقداً عن كل فرد تجب عليه صدقته .

ومنها الأضاحى التى ينحرها القادر فى عيد الأضحى ويتصدق بثلثها على الأقل للمحتاجين ، والهدْى الذى يضحى به الحاج لبيت الله الحرام .

الكفارات :

عمد الإسلام إلى طائفة من الخطايا التى قد يرتكبها المسلم ، فجعل كفارتها إخراج المال والتصدق على الفقراء : فالحنث فى اليمين كفارته إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو عتق رقبة أو صيام ثلاثة أيام .

ومن يفطر فى رمضان بعذر مقبول فعليه أن يطعم مسكيناً .

ومن يظاهر امرأته : أى يقول لها : أنت علىّ كظهر أمى ، ثم يرغب فى مراجعتها فكفارة ذلك تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام شهرين ، فمن لم يجد فإطعام ستين مسكيناً .

* * *

إن ما ذكرناه هو الحد الأدنى الذى يفرضه الإسلام فى مجال التشريع والتكليف ويلزم به المسلم . ويجعله فى بعض الأحيان من أركان دينه وإسلامه .

ولكن الإسلام إلى جانب ذلك يدعو المسلم إلى المزيد من البذل والعطاء تطوعاً منه . ويُحبّب إليه عمل البر . ويحثه على التسامى عن غرائز الأثرة والأنانية .

فإلى جانب الزكاة المفروضة بحكم القانون – هناك الصدقة الموكولة لضمير المسلم بغير حدود ؛ تحقيقاً للتراحم والترابط والتكافل الاجتماعى . قال تعالى :

« لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » آل عمران / ٩٢ .

– « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ » البقرة / ٢٥٤ .

– « آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ . فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » . الحديد / ٧ .

وهو سبحانه وتعالى يجعل الصدقة قرضاً مضمون الوفاء فى رحابه القدسى :

– « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » الحديد / ١١ .

– « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » البقرة / ٢٦١ – ٢٦٢ .

– « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ » فاطر / ٢٩ – ٣٠ .

والقرآن الكريم حافل بمئات الآيات التى تحض على البر والإحسان وإنفاق المال للتخفيف عن المحتاجين وتحقيق التكافل الاجتماعى بين الناس .

وهذا رسول الله ﷺ يضرب المثل فى البذل والعطاء ، حتى إذا أدركه الموت تذكر أن عنده بضعة دنانير فأمر أهله أن يتصدقوا بها ثم راح فى غيبوبة . وشغل أهله به عن تنفيذ أمره ، فلما أفاق وعلم أنها لم توزع أخذه الغضب ، وطلب إلى عائشة إحضارها ووضعها فى كفه وهو يقول :

– ما ظنّ محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه ؟ ثم تصدق بها جميعاً .

وهذا « على بن أبى طالب » رضى الله عنه يتصدق هو وأهل بيته بثلاثة أرغفة كانت كل ما عنده على مسكين ويتيم وأسير ، ثم يبيتون على الطوى وقد شبع المسكين واليتيم والأسير .

وهذا عثمان بن عفان ، قبل أن يصبح خليفة ، تجيء له قافلة من الشام تضم ألف بعير محملة بالقمح والزيت والزبيب ، وكان ذلك فى وقت اشتد فيه الكرب بسبب القحط . وجاءه التجار يطلبون الشراء فسألهم :

– كم تربحونى على شرائى ؟

قالوا :

– الدرهم : درهمين .

فيقول لهم :

– أعطيت أكثر من هذا .

فقالوا له :

– يا أبا عمرو ، ما بقى فى المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا إليك أحد ، فمن ذا الذى أعطاك ؟

فيقول لهم :

– إن الله أعطانى بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟

ثم يعلن أن تلك البعير وما حملت صدقة لله على الفقراء والمساكين !

* * *

هذه هى العناصر الأساس التى تقوم عليها العدالة الاجتماعية فى الإسلام . ولكن صورة هذه العدالة الاجتماعية لا تكتمل إلا إذا أشرنا إلى بعض المبادئ الرئيسة التى أقرها الإسلام ، والتى تكمل الملامح العامة للعدالة الاجتماعية فى صورتها المثلى كما طبقها المجتمع الإسلامى .

مبادئ على طريق العدل الاجتماعى

الملكية الفردية وتكدس الثروات :

فى الوقت الذى يحترم الإسلام فيه الملكية الفردية فإنه يكره تكدس الثروات فى أيد قليلة فى المجتمع ؛ فالإسلام يقر الملكية الفردية ويحميها من الاعتداء عليها بأى صورة : كالسرقة والسطو ونقل حدود الأرض بقصد الاغتصاب . وفى ذلك يقول النبى ﷺ :

– من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان .

ويقول عليه السلام :

– من غصب شبراً من أرض طوقه الله من سبع أرضين يوم القيامة .

الملكية الفردية إذن مصونة ، والفرص متكافئة أمام الجميع للعمل والإنتاج والكسب الحلال ، وأموال الأفراد من منقول وعقار فى عصمة من الاعتداء أو المصادرة بغير حق .

ولكن الإسلام إلى جانب ذلك يكره تكدس الثروات فى جانب ، والفقر والحرمان فى جانب آخر . وفى سبيل منع ذلك فرض نظام الإرث الذى ينتهى إلى تفتيت الثروات الكبيرة بين الورثة خلافاً لما تفرضه بعض

النظم التشريعية الأخرى حيث تنتقل الثروة كلها واللقب إلى الابن الأكبر كما يحدث فى بريطانيا مثلاً .

أما الإسلام فإنه يورث الأبناء والبنات والآباء والأمهات والأجداد والجدات . والأزواج والزوجات . والإخوة والأخوات . والأعمام وأبناءهم . وأبناء الإخوة والحفدة . وهكذا يوزع التركة توزيعاً عادلاً على عدد كبير من أقرباء المورث . فيوسع دائرة الانتفاع بها . ويمنع تكدس الثروة فى قلة محدودة من الملاك ؛ بهذا النظام تستحيل الملكية الفردية الكبيرة بعد فترة إلى ملكيات صغيرة فى أيدى طبقات الوارثين .

كما أن الإسلام يجعل لولى الأمر حرية التصرف فى بعض الأحوال ؛ كما حدث فى توزيع فىء بنى النضير : فقد وزعه النبى كله على المهاجرين الفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم عدا رجلين فقيرين من الأنصار . ثم جاء القرآن مؤيداً لما فعله النبى : « كَىْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » الحشر (٧) .

وبهذا التصرف عمل النبى على تعويض المهاجرين . وتذويب الفوارق فى الثروة بينهم وبين الأنصار .

والملكية الفردية لها وظيفة اجتماعية يجب أن تلتزمها ؛ ولهذا أجاز الإسلام نزع الملكية من صاحبها إذا أساء استخدامها :

كان لسمرة بن جندب نخل فى بستان رجل من الأنصار . فكان « سمرة » يكثر من دخول بستان الأنصارى حتى ضاق به وشكاه إلى النبى

الذى استدعى « سمرة » وطلب إليه أن يبيع نخله إلى الأنصارى . فأبى « سمرة » . فقال له النبي : « فاقطعه » فرفض « سمرة » فقال له الرسول :

— هبه ولك مثله فى الجنة .

ولكن « سمرة » أصر على رفض الحلول المختلفة التى عرضها عليه النبى . فلما تبين الرسول أنه يصر على دخول البستان ليؤذى الأنصارى قال له : « أنت مضارّ » : أى أنك تريد الإضرار به . وقال لمالك البستان :

— اذهب فاقلع نخله !

ومن ذلك ما قرره من حقوق الارتفاق على الملك الخاص :

كان للضحاك بن خليفة الأنصارى أرض زراعية لا يصل إليها الماء إلا إذا مر بحديقة لمحمد بن مسلمة الذى رفض أن يمر الماء بأرضه . فشكاه الضحاك إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذى استدعى المشكو وسأله :

— أعليك ضرر فى أن يمر الماء ببستانك ؟

— لا .

قال عمر :

— والله لو لم أجد له ممرًا إلا على بطنك لأمررته !

تحريم احتكار الضرورات :

حرم الإسلام احتكار الضرورات للتحكم فى أسعارها ، وفى هذا

يقول النبي :

— من احتكر طعاماً أربعين يوماً فقد برئ من الله ، وبرئ الله منه .

وهناك نوع من الأموال جعلها الإسلام شائعة لا يجوز احتجازها للأفراد سرد النبي منها ثلاثة عندما قال :

— الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار .

ويقاس على هذا ما فى باطن الأرض من ثروات معدنية وغيرها فإنه يكون ملكاً خالصاً لبيت المال .

بل إن الإسلام أباح نوعاً من نزع الملكية للمنفعة العامة ؛ كما أجاز لولى الأمر تخصيص الملكية الجماعية وتقييد الانتفاع بها إذا اقتضت ذلك المصلحة العامة . وقد احتجز النبي جزءاً من أرض الكلأ العام المباحة للجميع فى منطقة « النقيع » وخصصها كى ترعى فيها خيل الجيش وإبله ، وقال : « حمى النقيع ، نعم مرتع الأفراس يُحمى لهن ويجاهد بهن فى سبيل الله » .

وكذلك حمى عمر بن الخطاب أرضاً بالربذة القريبة من المدينة ، وجعل كلأها حقًّا مشاعاً للفقراء ، وأمر عامله على الربذة أن يبعد عنها ماشية الأغنياء ، ولما جاء أهلها يشكون قائلين :

— إنها أرضنا ، قاتلنا عليها فى الجاهلية وأسلمنا عليها ، فعلام تحميها ؟

أجابهم عمر :

– المال مال الله . والعباد عباد الله . والله لولا ما أحمل عليه فى سبيل الله ما حميت شبراً فى شبر .

وبرر « عمر » تصرفه قائلاً لعامله :

– إن تهلك ماشية الغنى يرجع إلى ماله ، وإن تهلك ماشية الفقير يأتنى متضوراً بأولاده يقول : يا أمير المؤمنين ، طالباً الذهب والفضة . وليس لى أن أتركه ، فبذل العشب أيسر علىّ من بذل الذهب والفضة يومئذ !

وهكذا يقرر الإسلام تأميم المرافق الأساس للناس . ولا شك أن القياس ينفسح لسواها من المرافق العامة التى تتطور بتطور حاجات الناس فى المجتمع .

التأمين الاجتماعى لكل عاجز ومحتاج :

لم يترك الإسلام – العاجز عن العمل والكسب لشيخوخة أو مرض ، والفقير المعدم ، والصغير وغيره بغير تدبير نظام يكفل لهم توفير ضرورات العيش . وقد بدأ الإسلام بفرض التكافل بين الأقارب . فأوجب على القادرين من الأقرباء أن ينفقوا على المحتاجين من أقربائهم ، وجعل هذه النفقة واجبة على الأصول والفروع والإخوة والأعمام والأخوال على التفصيل الوارد بكتب الفقه الإسلامى .

وفرض الاسلام على بيت المال الإنفاق على المحتاج العاجز عن الكسب والمرأة المحتاجة إذا لم يكن لها قريب تجب عليه نفقتها .

وقد فرض عمر بن الخطاب للمولود مائة درهم . فإذا ترعرع بلغ به مائتين . فإذا بلغ زاد عطاءه .

وكان يفرض للقيط . ويجعل رضاعته ونفقته من بيت المال .

أليس هذا هو نظام الضمان الاجتماعي الذي وصلت إليه المجتمعات الحديثة في هذه الأيام ؟

ولا يفوتنا أن نذكر أن عمر بن الخطاب كان يتوسع في تطبيق هذا النظام حتى يشمل غير المسلمين . فقد حدث أن رأى شيخاً ضريراً يشحذ . فرجح أنه ذمي . وسأله :

– من أي أهل الكتاب أنت ؟

قال الرجل :

– يهودي .

– وما ألجاك إلى ما أرى ؟

– اسأل الجزية والحاجة والسن !

فأخذ عمر بيده إلى منزله وأعطاه شيئاً مما عنده . ثم أرسل إلى خازن المال وقال له :

– انظر هذا وأمثاله . فوالله ما أنصفنا الرجل إنْ أكلنا شبيبته ثم خذلناه عند الهرم ! إنما الصدقات للفقراء والمساكين . وهذا من المساكين من أهل الكتاب .

وأمر « عمر » برفع الجزية عنه وعن أمثاله .

العدل فى تحصيل الضرائب :

كانت الضرائب فى صدر الإسلام تتمثل فى الزكاة المفروضة على كل مسلم ، والجزية المفروضة على أهل الذمة والخراج ، وقد كان تحصيل هذه الضرائب يتم بأسلوب يهدف إلى تحقيق العدل الاجتماعى فى أرفع صوره .

وحين وقعت المجاعة فى عام الرمادة بسبب القحط لم يرسل عمر ابن الخطاب عماله لتحصيل الزكاة ، بل ترك الناس حتى ينتهى القحط وترتفع المحنة ، فلما عاد الرخاء بعثهم فأخذوا من القادرين حصتين : واحدة عن عام الرمادة ، وأخرى عن العام التالى ؛ وأعفى غير القادرين ، وأمر بأن توزع عليهم إحدى الحصتين .

ومن ذلك ما كان يجرى عليه العمل من عدم الحجز على الأشياء الضرورية وفاء للضريبة ، وعدم استخدام القوة أو العنف فى تحصيلها :

أوصى على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، أحد عماله فقال :

— إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوةً شتاءً ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ، ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضربن أحداً منهم سوطاً واحداً فى درهم ، ولا تُقمه على رجله فى طلب درهم ، ولا تبع لأحد منهم عَرَضاً فى شىء من الخراج ؛ فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو .

ومن ذلك تطبيق مبدأ الضريبة المتفاوتة على حسب المقدرة والعجز :
فعندما فرضت الجزية على أهل الذمة جعلتهم ثلاث فئات :

١ – أغنياء : يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهماً عن كل فرد فى العام .

٢ – أوساط : يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهماً .

٣ – فقراء : يتكسبون يؤخذ منهم اثنا عشر درهماً .

ويعفى من دفع الجزية المسكين المحتاج ، والعاجز عن العمل ، والأعمى والمقعد والمجنون وكل ذى عاهة ، وكذلك المرأة والصبى .

ويجيز الفقه الإسلامى للإمام أن يفرض من الضرائب الدائمة أو المؤقتة ما تدعو إليه الحاجة وتستقيم به أحوال المسلمين [١] .

وقد فرضت فى عهود الخلافة ضرائب على الواردات ، وعلى التجار الذين يمرون ببعض نقط المراقبة فى البلاد الإسلامية ، وعلى السفن التى تمر بموانى هذه البلاد ، وعلى الحوانيت ودور سك النقود وغيرها [٢] .

وفى عهد الملك المظفر قطز عندما أراد محاربة التتار الذين كانوا قد احتلوا دمشق وأخذوا يهددون مصر ، وجد الخزانة العامة خاوية من المال اللازم لتجهيز الجيش . فاستفتى قاضى القضاة الذى أفتى بجواز فرض

---

(١) المساواة فى الإسلام للدكتور على عبد الواحد وافى .

(٢) المرجع السابق .

ضريبة دفاع خاصة غير الزكاة والخراج إذا كان ذلك ضرورياً لحماية الدولة .

وفعلاً فرض الملك « قطز » ضريبة استثنائية مقدارها دينار على كل رجل وامرأة . وأخذ أجور الأوقاف الخيرية قبل موعدها بشهر ، وأخذ مقدماً زكاة عام ، وأخذ ثلث تركات المتوفين .

وهكذا استطاع تجهيز الجيش الذى هزم التتار فى موقعة عين جالوت .

من أين لك هذا ؟

كان الإسلام أول من طبق على الحكام مبدأ من أين لك هذا ، لكى يحمى الناس من انحراف الحكام أو استغلالهم مراكزهم لكسب غير مشروع .

وكان النبى ﷺ أول من طبق ذلك عندما جاءه رجل كان قد استعمله على صدقات بنى سليم : أى لجمع الزكاة منهم ؛ فقسم ما عاد به قسمين ، قدم قسماً منه للنبى قائلاً :

– هذا لكم ، وهذه هدايا أهديت إلىّ !

فغضب النبى وخطب الناس قائلاً :

– إنى أستعمل رجالاً منكم فى أمور مما ولاّنى الله ، فيأتى أحدكم فيقول : هذا لكم وهذه هدايا أهديت إلىّ . . ! فهلا جلس فى بيت أبيه

أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذى نفسى بيده لا يأخذ أحد منه شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته !

أما عمر بن الخطاب فقد توسع فى تطبيق هذا المبدأ ، وفرض على ولاته قيوداً صارمة ، وتعقب أى شبهة لاستغلال النفوذ بما عرف عنه من صرامة فى الحق لا تلين ...

كان عمر بن الخطاب إذا استعمل عاملاً سجل عليه ما يمتلك ، ثم حاسبه بعد ذلك على ما زاد عليه خلال قيامه بعمله حساباً عسيراً .

وكان يأمر إذا قدم عليه العمال أن يدخلوا المدينة نهاراً ، ولا يدخلوا ليلاً لكيلا يحجبوا أو يخفوا شيئاً من الأموال . . !

وكتب إلى عمرو بن العاص واليه على مصر ، وكان قد علم أنه أصبحت له فى مصر ثروة قال فى رسالته إليه :

— بلغنى أنه فشت لك فاشيةٌ من خيل وإبل وبقر وعبيد ، وعهدى بك قبل ذلك ولا مال لك ، فاكتب إلىّ من أين أصل هذا المال ؟

فأجابه عمرو بن العاص :

— أما بعد فإنه أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه فاشية مال فشا لى ، وأنه يعرفنى قبل ذلك ولا مال لى ، وإنى أعلم أمير المؤمنين أنى ببلدٍ السعر فيه رخيص ، وأنى أعالج من الزراعة ما يعالجه الناس ، وفى رزق أمير المؤمنين سعة ، ووالله لو رأيت خيانتك حلالاً ما خنتك ، فأقصر أيها الرجل ، فإن لنا أحساباً هى خير من العمل لك ، إن رجعنا إليها عشنا

بها ! ولعمرى إن عندك من لا يذم معيشته ولا تذم له ، وإن كان ذلك لم يفتح لك قفلاً ولم يشركك فى عمل .

فرد عليه عمر بن الخطاب :

— أما بعد فإنى والله ما أنا من أساطيرك التى تسطر ، ونسقك الكلام فى غير مرجع ، لا يغنى عنك أن تزكى نفسك ، وقد بعثت إليك محمد ابن مسلمة فشاطره مالك ؛ فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون المال لم يزعكم عذر ، تجمعون لأبنائكم ، وتمهدون لأنفسكم . أما إنكم تجمعون العار ، وتورثون النار !

وذهب محمد بن مسلمة إلى مصر ، فأخذ نصف مال عمرو ابن العاص وعاد به إلى الخليفة فضمه إلى بيت المال !

وحدث أن مر عمر بن الخطاب ببناء يبنى بالحجارة والجص . فسأل عن صاحبه ، فأخبروه أنه لعامله على البحرين . فقال :

— أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها . . !

ثم شاطره ماله وضم نصفه إلى بيت المال .

وصادر عمر أبا موسى الأشعرى وكان عامله على البصرة ، وقال له : « بلغنى أن لك جاريتين وأنك تطعم الناس من جفنتين ! » . ثم أعاده بعد المصادرة إلى عمله . وصادر أبا هريرة وأغلظ فيه وعزله وكان عامله على البحرين .

وصادر الحارث بن وهب وقال له :

– ما قِلاصٌ وأعبدٌ بعتَها بمائة دينار؟

قال الحارث :

– خرجت بنفقة لى فاتجرت فيها .

قال عمر :

– إنا والله ما بعثناك للتجارة ! أدّها إلى بيت المال .

فقال الحارث :

– أما والله لا أعمل لك بعدها .

فقال له عمر :

– وأنا والله لا أستعملك بعدها !

ثم صعد المنبر فقال :

– يا معشر الأمراء ، إن هذا المال لو رأينا أنه يحلّ لنا لأحللناه لكم ، فأما إذا لم يحلّ لنا وكففنا أنفسنا عنه فكفوا عنه أنفسكم ، فإنى والله ما وجدت لكم مثلاً إلا عطشان ورد اللجة ولم ينظر الماتح ، فلما روى غرق !

والواقع أن « عمر » كان يأخذ نفسه وأهله بما يطبقه على عماله ، بل كان يتزيد فى القسوة على نفسه وأهله :

فى عام الرمادة كان يحرم على نفسه تناول طعام ليس فى متناول عامة الناس ، مع أنه الخليفة الذى يحكم إمبراطورية تمتد من شمالىّ أفريقيا إلى الهند :

روى « الطبرى » أن عمر بن الخطاب أتى بخبز مفتوت بالسمن فى عام الرمادة ، ثم دعا رجلاً بدويًّا ليأكل معه . فجعل البدوى يتبع اللقمة الوَدَك أى الدسم فى جانب الطبق . فقال له « عمر » :

— كأنك مقفر من الودك ؟

فقال البدوى :

— ما أكلتُ سمناً ولا زيتاً ولا رأيت آكلاً له منذ كذا وكذا إلى اليوم !

فحلف « عمر » رضى الله عنه لا يذوق لحماً ولا سمناً حتى ينقضى الجدب ويخصب الناس .

وعن أنس رضى الله عنه قال :

— تقرقر بطن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عام الرمادة . وكان يأكل الزيت . وكان قد حرم على نفسه السمن . فنقر بطنه بأصبعيه وقال « تقرقر ! إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس » !

وحدث أن أبا موسى الأشعرى أهدى لعاتكة بنت زيد زوجة عمر ابن الخطاب طنفسة . فدخل عليها عمر فرآها ، فسألها عن مصدرها ، فأخبرته أنها هدية من أبى موسى الأشعرى . فأخذ عمر الطنفسة وضرب بها رأس زوجته حتى أصابها الدوار . ثم قال :

— علىّ بأبى موسى الأشعرى وأتعبوه .

فأحضروا له أبا موسى وقد أتعب . فدخل عليه وهو يلهث قائلاً :

— لا تعجل عليّ يا أمير المؤمنين .

فقال له عمر :

— ما يحملك على أن تهدى لنسائى ؟

ثم تناول عمر الطنفسة وضرب بها رأسه قائلاً :

— خذها فلا حاجة لنا فيها !

وروى عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه اشترى إبلاً ، وأخذ يرعى بها حتى سمنت ، فذهب بها إلى السوق لبيعها ، ودخل أبوه السوق فرأى الإبل السمان . فسأل عن صاحبها فقيل له : إنها لابنه عبد الله ؛ فنادى عمر ابنه قائلاً :

— بخٍ بخٍ يابن أمير المؤمنين ! .

وأقبل عبد الله يسعى ويسأل أباه :

— ما لك يا أمير المؤمنين ؟

فقال أبوه :

— ما هذه الإبل ؟

قال عبد الله :

— إبل أنضاء اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى أبتغى ما يبتغى المسلمون ! ولكن عمر لم يقتنع بقول ابنه ، وخشى أن يكون قد استغل نفوذه فى تسمين الإبل ، فقال له ساخراً :

— ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين ! اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين !

يا عبد الله بن عمر ، اغدَ على رأس مالك واجعل باقيه فى بيت مال المسلمين !

وهكذا حكم « عمر » على ابنه بأن يأخذ الثمن الأصلى الذى دفعه فى الإبل ، وأن يرد ما زاد عنه إلى بيت المال ؛ لأن هذه الزيادة تخالطها شبهة استغلال نفوذ أبيه أمير المؤمنين فى تسمين الإبل !

ولعمر بن الخطاب مع زوجته حديث آخر :

جاء بريد ملك الروم على عمر بن الخطاب . فاقترضت زوجة « عمر » ديناراً اشترت به عطراً جعلته فى قوارير وبعثت به مع البريد هدية إلى امرأة ملك الروم . فلما تسلمت الأخيرة الهدية أفرغت القوارير من العطر وملأتها بالجواهر ، وأعادتها إلى امرأة خليفة المسلمين ردًّا لهديتها .

ودخل عمر بن الخطاب بيته فوجد زوجته قد أفرغت فصوص الجواهر على البساط . فسألها عنها . فأخبرته بقصتها . فأخذ الجواهر فباعها ودفع إلى امرأته ديناراً . وجعل ما بقى من الثمن ، وهو كثير ، فى بيت مال المسلمين !

هكذا فعل الخليفة الإسلامى مع ابنه وزوجته وولاته . فوضع بذلك أدق المعايير الصارمة لمحاربة استغلال النفوذ ، وتعقبه فى مظان وجوده ، وفى أى شبهة تلوح له ولو من بعيد !

وعلى هواة البحث والدراسة أن يترجموا ما فعله عمر بن الخطاب إلى ما وصلت إليه الحكومات الحديثة بعد أربعة عشر قرناً من الزمان حين

فرضت على موظفيها تقديم إقرارات الذمة المالية ، وإقرارات الثروة ، وأصدرت قوانين الكسب غير المشروع . وغير ذلك من التشريعات والنظم التى نجد مصدرها الأصلى عند شريعة الإسلام .

كلمة أخيرة

و « بعد » فهذه هى الملامح العامة للعدالة الاجتماعية فى الإسلام ، كما حددها القرآن الكريم ، وسنة رسول الله ، وكما طبقها الخلفاء الراشدون من بعده .

هذه هى العدالة الاجتماعية فى الإسلام ، وهذا هو جوهرها الصحيح برغم أن المجتمع الإسلامى نفسه قد انحرف عنها اللهم إلا القليل .

وقد بدأ هذا الانحراف منذ أن تحولت الخلافة إلى مُلك عضوض يورث ، وأصبح الخلفاء ملوكاً ، والحكام قياصرة ، فبدأ الإسلام يشقى بأهله !

دخل عمر بن الخطاب على النبى مرة فوجده يفترش الحصير وقد أثّر الحصير فى جنبيه ، ففاضت دموع عمر رحمةً بالرسول وقال له :

— يا رسول الله ، ألا تتخذ لك فراشاً ليّنا ؟

فقال له النبى :

— أتظنها كسروية يا عمر ؟ إنها نبوّة لا مُلك ، وإن شقاء أمتى يوم يكون فيها كسرى ، ويكون فيها قيصر !

صدق رسول الله . .

فهرس

	الصفحة
العدالة الاجتماعية	٥
الديمقراطية فى الإسلام	٨
الحرية للإنسان الفرد	١٤
المساواة فى الإسلام	١٧
تكافؤ الفرص	٢٧
التكافل الاجتماعى	٣١
تمويل التكافل الاجتماعى	٣٥
مبادئ على طريق العدل الاجتماعى	٤٣
كلمة أخيرة	٥٩

صدر من هذه السلسلة :

العنوان	المؤلف
١ – طعام الفم والروح والعقل	توفيق الحكيم
٢ – الفضاء ومستقبل الإنسان	د . فاروق الباز
٣ – شريعة الله وشريعة الإنسان	المستشار على منصور
٤ – أسس التفكير العلمى	د . زكى نجيب محمود
٥ – عالم الحيوان	د . محمد رشاد الطوبى
٦ – تاريخ التاريخ	على أدهم
٧ – الفلسفة فى مسارها التاريخى	د . توفيق الطويل
٨ – حواء وبناتها فى القرآن الكريم	أمينة الصاوى
٩ – علم التفسير	د . محمد حسين الذهبى
١٠ – المسرح الملحمى	د . عبد الغفار مكاوى
١١ – تاريخ العلوم عند العرب	د . أحمد سعيد الدمرداش
١٢ – شلل الأطفال	د . مصطفى الديوانى
١٣ – الصهيونية	فتحى الإبيارى
١٤ – البطولة فى القصص الشعبى	د . نبيلة إبراهيم سالم
١٥ – الحضارة	د . أحمد حمدى محمود
١٦ – أيامى على الهوا	سلوى العنانى
١٧ – المساواة فى الإسلام	د . محمد بديع شريف
١٨ – القصة القصيرة	د . سيد حامد النساج
١٩ – عالم النبات	د . مصطفى عبد العزيز مصطفى

الكتاب القادم

السينما فن

صلاح أبو سيف

رقم الإيداع	١٩٧٧/٤٥٥٢
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٢٧ – ٦

٩٣/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هـذا الكتاب

يبحث هذا الكتيب فى معنى العدالة الاجتماعية ومقوماتها . وكيفية تحقيقها .. ويثبت أن الإسلام يقدم العدالة الاجتماعية فى صورتها الحقيقية التى تقوم على عناص
والمساواة وتكافؤ الفرص
ويقدم الأمثلة من القرآن
الرسول وصاحبيه أبى بكر وع
الإسلامية على أسس م
الاجتماعى . وفاقت بنظامه
حولها ..

١٠ ج